أم ورقة

رضي الله عنها

obeikandl.com

obeikandl.com

أم ورقة

قال لي ولدي: ومَن التي بشرت بالجنة أيضاً يا أبي؟

قلت: إنها أم ورقة يا بني والدها يدعى: عبد الله بن الحارث الأنصاري، اعتنقت الإسلام في وقت مبكر بعد نشره في المدينة على يد سفير رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وأصبح الدين الجديد شغلها الشاغل، حتى قطّعت وقتها بين الصيام والقيام وتلاوة القرآن.

وبعد عودة وفد الأنصار من مكة حيث التقوا برسول الله ﷺ، وبايعوه بيعة العقبة الثانية، واختاروا لهم منهم اثني عشر نقيباً، علمت أم ورقة من الذين ضمهم الوفد: أن رسول الله ﷺ قادم إليهم مهاجراً عما قريب، وأخذت أم ورقة وسائر نساء الأنصار، ورجال المدينة وأبناؤها ينتظرون ذلك اليوم الأغر الذي ستكتحل فيه عيونهم بطلعة سيد البشر رسول الله ﷺ، ليسعدوا باستضافته، ويَنعموا بإقامته بين ظهرانيهم.

ولم يطل بأهل المدينة الانتظار حتى سمعوا المنادي يعلن: أن رسول الله ﷺ قد بلغ مشارف المدينة، وهو في طريقه إليهم، وما كاد الناس يسمعون هذا النبأ السار حتى خلت الدور من أهلها وخرج الرجال والنساء والأطفال عن بكرة أبيهم، ليكونوا في طليعة المرحبين بمقدم ضيفهم الكريم الذي لم

تتشرف مدينتهم، بل الدنيا بأسرها، بقدوم خير منه ولا أفضل.

وكانت أم ورقة قد خرجت مع صواحبها نساء الأنصار، حتى إذا بدا لهن موكب الحبيب الأعظم أخذن يهزجن وينشدن مع الأطفال أروع نشيد رددت أصداءه مدينتهم الغرَّاء ويقلن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحباً يا خير داع

نعم، إنه لشرف عظيم أن يزورهم خاتم المرسلين، وحبيب رب العالمين، وصفوته من خلقه أجمعين.

وبعد أن انتهت مراسم الاستقبال نزل رسول الله ﷺ ضيفاً على خالد بن زيد أبي أيوب الأنصاري، وكادت أم أيوب زوجه تطير من شدة الفرحة التي غمرتها، فما أسعدها إذ تهيىء للضيف الغالي طعامه، وتعد له الفراش المريح، وتسهر مع زوجها على خدمته، وتوفير أسباب الراحة له، دون أهل المدينة قاطبة!

وحين أصاب رسول الله ﷺ قسطاً من الراحة، أمر أصحابه أن يبادروا ببناء المسجد وبعض الحجرات الملحقة به

لتكون مساكن لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

وأسرع الصحابة الكرام لتنفيذ ذلك الأمر، وراحوا يبذلون ما لديهم من الجهود لإنجاز المسجد في أسرع وقت، حتى يتمكنوا من أداء فريضة الصلاة مع رسول الله ﷺ، وحضور مجالس الوعظ والإرشاد التي يديرها، والاستماع إلى تلاوة لآيات القرآن الكريم التي تأخذ بمجامع القلوب، وتأسر النفوس والألباب.

قال: وماذا صنعت أم ورقة يا أبي؟

قلت: فكرت أم ورقة أن تجمع أهل بيتها، وصواحبها من نساء المهاجرين والأنصار، على الصلاة في بيتها، فسألت رسول الله ﷺ عمّا إذا كان يحق لها أن تؤمهن في الصلاة، وكم كانت فرحتها شديدة حين سمح لها بإمامة النساء، وجعل لها مؤذّناً خاصاً يؤذن أمام دارها في مواعيد الصلاة لتوافيها النساء، حتى لا يفوتهن ثواب الجماعة. وهذا الفضل الذي خَصَّ به رسول الله ﷺ أم ورقة لم تحظ به مهاجرة ولا أنصارية سواها.

ولم تكتف أم ورقة بإمامة النساء، بل أخذت تقرأ عليهن القرآن، وتنقل إليهن ما تحفظه من أحاديث رسول الله ﷺ.

لقد أصبح بيتها مسجداً صغيراً للنساء، ولما كانت أم ورقة تعي أن رسالة المسجد لا تقتصر على الصلاة فيه فحسب، بل تمتد إلى ذكر الله ونشر أحاديث رسول الله ﷺ والتفقه في الدين، وتلاوة القرآن، لذلك قررت أن يكون مسجدها في البيت صورة مصغرة عن المسجد الكبير الذي يقصده الرجال.

وكانت أم ورقة تطلب المزيد، من حفظ الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمسائل الفقهية، لتنشرها بين أخواتها المسلمات، وتجني من وراء ذلك الثواب الجزيل.

وذات يوم، ولأول مرة، سمعت منادي رسول الله ﷺ يدعو الناس للخروج معه إلى «بدر» لمجاهدة المشركين، ومحاربة أعداء الله والدين، فهل تدري ما صنعت أم ورقة يا بني؟

قال: لعلها أرادت الذهاب إلى المعركة يا أبي! أم ماذا؟

قلت: ذكرت أم ورقة قول الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١]، وحين سمعت صوت المنادي إلى الجهاد، انطلقت إلى رسول الله ﷺ، وقالت له: يا رسول الله، أتأذن لي أن أخرج معك، أداوي جرحاكم، وأمرض مرضاكم لعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ يهدي إليّ شهادة؟

لم تكتف تلك المؤمنة الطيبة بالصيام والصلاة، وإمامة المؤمنات وتلاوة القرآن وحفظه، والتفقّه في الدين، بل أرادت أن تشارك في الجهاد؛ لأنها كانت تطمع في الحصول على أمثل غاياته، وأعلى درجاته، ألا وهي الشهادة.

لكن رسول الله ﷺ أمرها أن تقرَّ في بيتها ثم قال لها وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: «**إن الله مُهدٍ لك شهادة**».

وكانت خير بشرى تسمعها أم ورقة من خير بشير، فقرَّت عينها بها، وانشرح صدرها لها، وراحت تزيد من طاعتها وتقرُّبها إلى الله، لتكون على أتم استعداد لاستقبال ما وعدها به

رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يدعوها: الشهيدة، ويزورها في بيتها مع أصحابه، وكان كلما أراد زيارتها يقول لأصحابه: انطلقوا بنا نزور الشهيدة، ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أصاب أم ورقة حزن شديد لفراق الحبيب الأعظم، وانقطاع الوحي من السماء.

قال: ليتك تحدثني عن فضل هذه الصحابية الجليلة يا أبي لأزداد بها علماً، وأحيط بأخبارها، وأسبح في الأنوار التي كانت تحيط بها من كل جانب.

قلت: لقد كانت أم ورقة واحدة من فواضل نساء عصرها، وكانت تروي أحاديث رسول الله ﷺ، وكان الصحابة الكرام يروون عنها تلك الأحاديث وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ودأب أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بعد توليه الخلافة يزورها مع صاحبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما كانا يفعلان في حياة رسول الله ﷺ يتفقدان أحوالها، وينظران في حاجاتها، تأسياً بالمبعوث رحمة للعالمين، واقتداءً بخاتم المرسلين ﷺ.

وكان يحلو لأم ورقة أن ترطّب لسانها بتلاوة القرآن، وتقرأ آيات الله بصوت مسموع، وكان عمر رضي الله عنه يمر بباب دارها وهو قاصد المسجد لأداء صلاة الفجر فيسمع تلاوتها ويقول: هذا صوت خالتي أم ورقة.

ولم يكن لأم ورقة إلا هاجس واحد يشغل تفكيرها آناء الليل وأطراف النهار.

قال: وما ذلك الهاجس يا أبي؟

قلت: إنها الشهادة التي وعدها بها رسول الله ﷺ، فقد مضى ﷺ للقاء ربه، دون أن تقطف ثمرة وعده لها، وتلاه أبو بكر الذي شملها برعايته وفضله، ثم مضى وفارق الحياة، وحلم هذه التقية الورعة لم يتحقّق.

وتولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر المسلمين، فكان براً بها لا ينقطع عن زيارتها كلما سنحت له الفرص، وكانت فرحته بسماع صوت تلاوتها لكتاب الله قبيل صلاة الفجر لا توصف.

وتوالت الأيام، وكرت الليالي، على هذا المنوال، وأم ورقة دائبة على طاعتها، قائلة لنفسها: هل من مزيد؟ لقد ملك الإيمان عقلها وقلبها وروحها وسمعها وبصرها وكل جوارحها، ولم تجد لذة إلا في حلاوته التي ما إن ذاقتها حتى استمرأتها، وراحت تلتمس منها في كل يوم زيادة دون أن تحس ـ في سبيل ذلك ـ تعباً ولا نصباً، ودون أن تخشى رهقاً.

كان بيت أم ورقة قد غدا مسجداً تؤم فيه النساء المؤمنات في أوقات الصلاة وتدير فيه حلقات ذكر الله وتلاوة كتابه، وكانت كثرة الزائرات تستلزم وجود من يقضي لهن بعض الحاجات، والإشراف على تدبير شؤون البيت وخدمة صاحبته، ولما كانت أم ورقة لا تستطيع أن تقوم بذلك منفردة مع الواجبات الدينية التي تقوم بها، فقد كان لزاماً أن تبحث لها عمن يساعدها ويشاطرها أعباء البيت وما يتطلب من جهود وأعمال.

ووجدت أم ورقة ضالتها في فتى وفتاة، وافقا على الإقامة معها والقيام بما تطلبه منهما، وتقديم الخدمات اللازمة لها

ولزائريها.

وأخذت أم ورقة تمنحهما العطف والحنان، وتعطيهما مما أعطاها الله وأنعم به عليها دون أن تدّخر وسعاً، أو تقصر في هذا المجال.

وعاشت أم ورقة معهما في وفاق ووئام، وسعادة وانسجام، تضمر لهما كل خير، وتؤثرهما بأفضل ما عندها، حتى تستأسر قلبيهما لديها، وتستميل نفسيهما إليها، ولكن خاب ظنها، وأخفق سعيها، وضاعت كل جهودها معهما هباءً.

قال: ولِمَ يا أبي؟ وما الذي حصل بين أم ورقة وخادميها؟

قلت: كان الفتى والفتاة، يملك كل منهما نفساً شريرة، لا تحب الخير أبداً، ولا تسعد برؤيته، ولا ترتاح إليه، ولو أنك سألتهما هذا السؤال، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ لأجاباك معاً: جزاء الإحسان هو الجحود والنكران، وهما ـ بهذا ـ مؤمنان وموقنان، ولو أنهما كانا على غير هذا الاعتقاد لما فعلا بأم ورقة تلك الفعلة الشنعاء التي أثارت عليهما سخط الأرض وغضب السماء.

قال: ولكن، بالله عليك! ما الذي فعلاه بأم ورقة يا أبي؟

قلت: لقد ارتكبا بحق أم ورقة فعلة شنيعة، وجريمة مريعة، تدع الحليم حيران، ويَنْدَى لها جبين الإنسان.

فَقد انتظراها حتى فرغت من صلاة الليل، وحين أيقنا أنها أخلدت إلى النوم، تسللا إلى مخدعها، وتعاونا على قتلها خنقاً

ثم غادرا المنزل بعد أن هدأ السير في الطريق وعمَّ الظلام، وقد نسيا من لا تغفل عينه ولا ينام، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ذلكم الله الذي وعد المظلوم أن ينصره ولو بعد حين.

واقتربت صلاة الفجر، وانطلق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ من بيته يريد المسجد، ومرَّ بباب الخالة أم ورقة فأدهشه أَلَّا يسمع صوت تلاوتها، فقال لنفسه: لعل حاجة شغلتها، وحالت بينها وبين التلاوة، ثم مضى في طريقه إلى صلاة الفجر.

ولما قُضيت الصلاة، وانتشر الناس كلٌّ إلى غايته، أسَرَّ عمر إلى بعض أصحابه فقال:

لقد اعتدت قبيل الفجر من كل يوم، وأنا في طريقي إلى المسجد أن أسمع صوت الخالة أم ورقة تقرأ ما تيسر لها من كتاب الله، إلا أنني لم أسمع في هذا اليوم صوتها، فما الذي شغلها عن ذلك يا ترى؟

فقيل له: إن كان هذا يقلقك فدعنا نذهب إلى بيتها، ونستوضح جليَّة الأمر، وارتاح عمر إلى تلك الفكرة، وأعجبه ذلك الاقتراح، ثم انطلق مع أصحابه إلى بيت أم ورقة.

وحين وصلوا أخذ عمر ينادي عليها: يا أم ورقة، يا خالة، يا خالة، ولكن لم يرد عليه أحد، فازداد قلقه، وأخذ الشك يساوره، إن بيتها يغص دائماً بالنساء، فما الذي جرى؟ وأي شيء يجعل دارها خالية؟ ثم طرق عليها الباب طرقاً عنيفاً، ولكن ليس وراء الباب مجيب ولا سميع، ثم اقتحم الدار مع

أصحابه، وهو لا يكف عن ندائه: يا خالة، يا أم ورقة، فلا يأتيه غير الصدى الذي يعزز ارتيابه، ويقوي حيرته وأمر أصحابه أن يتفرقوا في جنبات الدار للبحث عنها، وأخذ هو يبحث معهم.

ولم يطل به البحث حتى وجد في جانب الغرفة التي هو فيها قماشاً من القطيفة: وحين حاول جذبها أحسَّ لها ثقلاً، ولما كشفها رأى تحتها جثة هامدة لم تكن غير جثة أم ورقة، الخالة القارئة التي عوّدته كل فجر على صوت تلاوتها الذي سكت اليوم إلى الأبد.

وصعق عمر أن يحدث ذلك إبَّان خلافته، وتحت ظلال عدالته، وأخذ يبكي ويسترجع ـ يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ.

وأدرك عمر أن في الأمر جريمة، ومما قَوَّى هذا الشعور لديه اختفاء الخادمين اللذين كانا يخدمانها، وكلَّف أصحابه بالبحث عنهما، وإحضارهما إليه على جناح السرعة.

وانطلق الصحابة يبحثون في كل مكان وفي كل اتجاه عن ذينك الخادمين، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى جيء بهما إلى عمر الذي تولى التحقيق معهما بنفسه، واعترف المجرمان الخائنان بجريمتهما البشعة، وأقرَّا أمامه بما اكتسبا، وأصدرت محكمة العدل العمرية الحكم بصلبهما، فصُلبا وكانا أول من يصلب في المدينة.

ثم راح عمر يقول لأصحابه: صدق رسول الله ﷺ، كان يقول لنا: «**انطلقوا بنا نزور الشهيدة**»، لقد تحققت بشرى رسول الله ﷺ هذا اليوم، ورزقت أم ورقة الشهادة التي وعدها بها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ، ١٧٠].

لقد أحزن الحادث المروع الذي أودى بحياة أم ورقة كل مؤمن ومؤمنة، من عرفها منهم ومن لم يعرفها، وكان حزنهم على المُثُل والقِيم التي كانت تتحلَّى بها وتسعى من أجل ترسيخها في نفوس الناس الذين تلتقي بهم.

صحيح أن أم ورقة قد رحلت بجسدها، غير أن المُثل والقيم بقيت بعدها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأن المثل والقيم ترفع من شأن الإنسان، وتميزه عمن سواه من المخلوقات، وهو بدونها سيرتد إلى أسفل سافلين، ويصل إلى أحط الدركات.

سلام على أم ورقة، وهنيئاً لها جنة الخلد مع النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.